رحلة الحور والنور

(عبد الرحمن بدوى يتحدث عن نفسه)

إعداد

د. حسين محمد فهيم

باحث أنثروبولوجى

"ارحلوا... انطلقوا أيها الرحالة، فأنتم الآن غير الأشخاص
عند بدء الرحلة".

ت.س إليوت (١٨٨٨- ١٩٦٥)

obeikandl.com

obeikandl.com

من حين لآخر، أقضى بعض الوقت مع الفلاسفة القدامى والمعاصرين أقرأ مختارات من أعمالهم، وأتأمل الكثير من أفكارهم رابطاً بين الفكر وشخصية صاحبه، وواصلاً بين أحوال زمانه ومسار رحلة حياته. فالحياة - عندى - رحلة، والرحلة حركة وسفر، والحركة فعل وتاريخ، والتاريخ أفكار وأحداث نعيشها عبر الزمان والمكان. وإذا كان البشر من خلق الله. فالفكر والحدث هما من صنع الإنسان.

وعن كلمة الرحلة ذاتها، أُوضِح أنها كثيراً ما تستخدم - مجازاً - لتعكس أو تصف حال النقلة النوعية التى تحدث للأفراد فى حياتهم بصفة عامة أو فى فكرهم بصفة خاصة، لذا توصف السير الذاتية بأنها «رحلة عمر»، وما الأعمال الفلسفية إلا نتاج رحلة الفكر والتأمل، كما أن النظريات العلمية هى أيضاً حصيلة المشاهدة والتجربة. وكما تكون الرحلة واقعية حيث يقوم بها الرحالة فعلاً على أرض الواقع متنقلاً ببدنه من مكان لآخر، معايناً لما يراه، وواصفاً لما يشعر به، يمكن للرحلة أن تكون خيالية أيضاً، ففى الرحلة الخيالية يطلق الفيلسوف أو الأديب أو الشاعر عنان تفكيره لينقله بعيداً عن واقعه وزمان عالمه إلى أماكن أخرى وأزمنة متباعدة، مستوحيا واقعاً أفضل وحياة أكثر إشراقاً، وسواء كانت الرحلة واقعية أم خيالية فقيمتها تكمن فى أنها أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وغيره[1].

فى إطار هذا الفهم لمعنى وقيمة الرحلة تقدم هذه الورقة إطلالة سريعه على كتاب عبد الرحمن بدوى «الحور والنور» باعتباره رحلة مع الذات وعنها[2]، فهى رحلة يمكن أن نطلق عليها «الرحلة البدوية»، نسبة إلى اسمه، وتشبيهاً له أيضاً بالبدوى المرتحل دوماً[3] وعلى أية حال، فقد رأيت فى كتاب «الحور والنور» مسار رحلة سجل بدوى ووقائعها وتأثيرها من خلال رسائل متبادلة بينه وبين سلوى: السيدة اللبنانية التى تمنى أن تكون رفيقة سفرته وشريكة مشاعره. وسواء كانت هذه السيدة شخصية حقيقية أم متخيلة، فقد أحيت سلوى حوار بدوى مع ذاته، كما أضفت قدراً من الرقة

والدعة – أو الرومانسية بمعنى آخر – على أجواء خطاب الرحلة الذى امتزج فيه العقل بالروح، والمكان بالزمان، والذكرى الأليمة بالأمل المرتقب.

وربما كان اختيار رحّالتنا لامرأة – فى شخص «الآخر» الذى يتحاور معه – تحايلاً وذكاء منه لينقل على لسانها ما لا يريد أن يفصح هو به عن نفسه. فالمرأة – فى رأيى – غالبا ما تكون لديها المقدرة الفائقة على سبر غور روح الرجل والإحساس بحقيقة بواطن ذاته أكثر من شعوره – هو – بهما. ولعلنا نعلم جميعا أن المرأة إذا ما اتصفت بشخصية موجبة قادرة على التفاعل، فهى تقوم بدور جدّ عظيم فى تجديد وحى المفكر وتشكيل رؤيته لذاته خاصة، وللحياة ودوره فيها عامة. وعن المرأة والفلاسفة، فبقدر ما ينجذبون إليها – إلى حد العشق غالباً، والشبق أحياناً – فبعضهم ينفرون منها، وكثيراً ما يخشونها. ونقرأ لشوبنهور – فى هذا الشأن – نصيحته بالابتعاد عنها.[٤]

وأياً ماكان الأمر، فإذا كانت الرسائل المتبادلة بين بدوى وسلوى تفصح عن علاقتهما الغرامية العارمة، إلا أن للفلاسفة رأياً فى الحب والزواج: نقرأ لشوبنهور– مثلاً – رأيه أن الزواج يبلى الحب ويقضى عليه. وربما أدرك مشاهير الفلاسفة ذلك فعزفوا عن الزواج، وإن تزوجوا فهم غير سعداء، بل معذبون. ويبدو لى أن الحب عند الفلاسفة – على الرغم من فشل معظمهم فى الاستمتاع بأريجه أو جنى ثماره – يشكل طاقة عظيمة تتولد معها الأفكار وترتقى بها المشاعر وتعظم الأحاسيس. وقد يجد البعض أيضاً فى الحب سبيلاً للهروب – ولو لحين – من جحيم العقلانية، بتأويلاتها وتعقيداتها، إلى نعيم الروحانية بيسرها واسترواحها. ويبدو أن بدوى من هذا النوع من الفلاسفة الذى يمثل الحب عندهم طاقة دفع، أو هكذا أراد أن يشعر ويعيش فى (رحلة الحور والنور) بعض ذكريات الحب جنبا إلى جنب مع آفاق الفكر وحقيقة الوجود.

ولنبدأ حديثنا عن الرحلة بتساؤل يطرح نفسه: لماذا الرحيل وإلى أين؟! .

فيجيب بدوى على ذلك فى أولى رسائله إلى سلوى يخبرها فيها بسفره إلى فرنسا لأول مرة مع أنه كان له فى أوروبا من قبل «جولات وما كان أطيبها من جولات»، على

حد تعبيره.[٥] ولكن لماذا فرنسا بالذات الآن؟! يجيب بدوى أنه أراد أن ينتقل ببدنه إلى المكان (ويقصد باريس) الذى سبق له أن انتقل إليه بفكره وروحه؛ «فكما كان للثقافة الألمانية أخطر الأثر فى تكوينه الفكرى كان أيضا للثقافة الفرنسية أثرها الذى لا يقل أهمية[٦]. وتوضح سلوى أن اختيار بدوى للذهاب إلى فرنسا- بالذات - يرد إلى توافق مزاجها الفكرى السائد - حينذاك - والقائم على فلسفة التمرد مع فكره وطابعه الشخصى الذى يجنح دائما إلى التمرد والعصيان .[٧] ويتراءى لى أن اختيار فرنسا بعد جولات أوروبا كانت سعياً من بدوى إلى وحدة ذاته، ففرنسا - فى- ظنى تشكل المعادل الموضوعى للمشاعر الانفعالية والأحاسيس العاطفية التى غالباً ما تكون قد كبتت أو حمت - إلى حد ما - بالعقلية الألمانية، وكأن بدوى أراد أن يمزج فى داخله بين أبولو وديونسيس.

ورحل بدوى - إذن - إلى مدينة النور (باريس) لينمى لديه هذا النوع من الفكر المتكامل، ولكى يتحقق له ذلك فقد أعد عقله، وشحذ روحه لهذا اللقاء؛ «فلا قيمه - عنده - لأى منظر (أو مكان) - بالغة ما بلغت روعته - إلا إذا كان فى الروح استعداد لتلقيه، فما أكثر الذين يرحلون ويشاهدون ولكن ما أقل الذين يفهمون ويتأثرون».[٨] ولذا فإن دافع رحلة الحور والنور جاء فى إطار رغبة بدوى الوفاء بواجب العرفان بالجميل لبعض أهل الفكر والفن والعشق من فرنسا وألمانيا، أمثال رينان، ورلكة، ورودان، ونيتشه، وفجنر، ولا مارتين الذين أسماهم بشيوخه الروحيين. ومن فرط ولائه لهم، وعظيم تأثيرهم عليه، سعى بدوى إليهم مجازاً فى «رحلة حج» يزور فيها منازلهم ليتفقد آثارهم ويتجول حيث وطئت أقدامهم[٩]. وهكذا يتضح أنه كان لدى بدوى دافع داخلى للرحلة وهو التوق لإثراء فكره، واختيار فرنسا بالذات كانت ضرورة بالنسبة له لتأصيل تجربته الوجودية اللاحقة. وكان لبدوى - أيضاً - دافع خارجى تمثل فى واجبه نحو أساتذة الفكر والأدب والفن.

وهكذا بدت لنا دوافع عبد الرحمن بدوى للقيام برحلة الحور والنور، ولكن من أين انطلق ومتى؟! هذا سؤال وإن لم تبصرنا الرسائل بإجابة واضحة عليه، فأغلب الظن أن الرحيل كان من مصر وفى نهاية الخمسينيات أوربما فى بداية الستينيات[١٠].

ويبدو أن بدوى أراد - عن عمد - فصل الرحلة عن زمانها، وأن اهتمامه كان موجها إلى الذات والمكان. ومع ذلك، أعتقد أن توقيت الرحلة والعزم على القيام بها قد ارتبط بفترة فى حياة بدوى أراد فيها الهروب من حال مؤسف أغضبه، وواقع أليم أزعجه، وفكر مضاد آلمه إلى الحد الذى جعله يختم رسالته الأولى إلى سلوى - عند بدء الرحلة - فى عبارة موجزة ولكنها مفعمة بمشاعر الغضب والحزن والوحدة «أعيش فى وطنى، ووطنى منفاى!. تمرح الدنيا من حولى؛ وكأنى أنا وحدى الذى أنوح»[11]. فربما شعر بدوى وكأنه واقع فى الأسر، فأراد أن يحطم القيد فانطلق فى رحلته هذه ليخلو بنفسه طليقة من مصدر الألم ومبعث الحزن، وليمتع بصره بما يشاهده، وألا يجهد فكره بالتأويل والتجريد[12]. فهل حدث ذلك بالفعل؟!

فلنبدأ - إذن - صحبة بدوى فى رحلته التى تضمنت ثلاث محطات بدأها بفرنسا، حيث القيام بواجب الزيارة لمشاهدة أساتذته الكبار. ففى رسائله المتعددة إلى سلوى- من باريس- قدم بدوى وصفاً رائعاً للمنازل التى زارها والأماكن التى تفقدها، والطرق التى طرقها، كما عرفنا بحكايات وأفكار وأعمال أحبابه من أهل الفكر والفن والعشق. جاء عرضه شيقا، وأسلوبه ممتعا، ومضمونه جذاباً لما زخر به من ذكر لمشاعره وأحاسيسه لما أحيته الزيارة من ذكريات. ولقد كشفت - حقا - رسائل باريس المتبادلة بينه ومن سلوى عن جوانب عديدة من ملامح شخصية صاحب الرحلة وموجهات فكره. ثم يترك بدوى باريس التى قال إنه بقدر ما ينجذب إليها ينفر منها، والتى رأى فيها أرض العفاء، والمدينة التى يقبع الموت فى أرجائها[13]. وهنا نتساءل عن طبيعة التفاعل بين بدوى والمكان؛ هل يضفى هو معانى على المكان من ذاته؟ أم أن هذا هو واقع المكان فعلاً؟. ثم يرحل بدوى إلى مزامير الطبيعة فى سويسرا عندماأحس بحاجته إلى استرواح أنفاس النعيم على حد تعبيره.[14] أراد بدوى أيضا أن يستكمل طقوس الزيارة لمشايخه بواجب السعى لمشاهد شيخه الأكبر نيتشة فى سلزماريا، بوادى الانجادين، وأن يصعد ربوة تريش قرب لوتسرن الجميلة ليشعر وكأن روح فجنر تبعث من جديد فى ألحان تغنيها الطبيعة من حوله. هل يا ترى كانت هذه الألحان تردد فى أذن بدوى فكرة (السوبر

مان) الذى يشكل التاريخ ويعيد حركته بإرادة القوة؟!

ولعل هذا يفسر لنا المحطة التالية من رحلة بدوى إلى «دمشق أسبانياً»[١٥]، وهى تسمية تبرز البُحث عن الذات الكلية من ناحية، كما تكشف عن سر وقيمة الإبداع الجميل الذى نتج عن تزاوج الروح العربية بالروح اللاتينية. فلقد ملكت أسبانيا كل قلبه، واستشعر فيها بدوى بهزة جديدة لم يحسها من قبل إذ نبهته - على حد قوله - إلى جلال أصوله، فآمن - لأول مرة - بجلال الروح العربية التى أبدعت روائع هذا البلد العجيب. أو بالأحرى جددت هذا الإيمان بعد أن كاد يفقده.[١٦] وهكذا يعظم تأثير المحطة الأسبانية فى رحلة بدوى على فكره، إذ حدث له تحول من الكراهية للروح العربية، التى كانت مشتركة بينه وبين سلوى، إلى الاعتزاز بها والشعور بقرحة الماضى العريق، وخاصة عندما دخل (طليطلة) بين «مواكب الألوان ومواكب الأشجان»[١٧]. وربما يكمن هنا- أيضاً- سر توجه بدوى إلى دراسة الفلسفة الإسلامية، حضارة ورسالة، فى كتاباته الأخيرة خاصة.[١٨]

هذه المحطات لرحلة الحور والنور وإن اختلفت فى ظاهرها من حيث قصر وطول الرحلة فى كل محطة، إلا أن العبرة ليست فى قصر أو امتداد الرحلة، وإنما فى تأثيرها وعمق تجربتها. وأياما كان الأمر، فإننا لا نقرأ الرحلة فى جزئياتها كوحدات منفصلة وإنما نراها كلاً مترابطاً وإطاراً عاماً تحدث بدوى فيه عن نفسه. لقد بدأ بدوى رحلته قلقاً، متوتراً، حائراً، وساعياً إلى التلقائية والخيال والشاعرية والتحرر من ملل الاستغراق فى العقلانية والتجريد، ولكنه أنهى رحلته نهاية إيجابية ومثيرة اكتشف فيها ضرورة وأهمية العودة إلى الأصل. وأن تحظى الروح العربية فى فكره وإنتاجه بتقدير يعادل - على الأقل - اعتزازه بالثقافتين الألمانية والفرنسية. ولعل من الأمور التى استوضحتها وأكدتها رسائل باريس وأسبانيا معاً أن الانفتاح على الثقافات الأخرى يسمح بفتح النوافذ على الآفاق المعارضة دون أن يستحيل إليها محاكاةً أواقتفاء»[١٩] وفى هذا الشان أيضاً، نجد أن بدوى قد تأثر وتعلم من تجربة رلكة الناجحة فى التقاء روحه الجرمانية بعرامة نزعتها الصوفية فى أتاويه الأسرار من وراء ضفاف المجهول مع روح باريس اللاتينية بنصاعة إشراقها وتفتحها الزاهر

على سطح الحياة. وتجدر الإشارة هنا إلى ارتباط فكرة الانفتاح الفكرى بالهدى لنور العقل الذى بعثه رينان عند بدوى فى إطار تمسكه بالرسالة التنويرية التي هى ولا شك طريق المستقبل.[٢٠]

واتساقاً مع تحليلنا للدوافع المختلفة لرحلة الحور والنور وتداعياتها فى سبر أغوار الوجدان والكشف عن أبعاده وفاعليته، نجد أنه على امتداد الرحلة – فى فرنسا وسويسرا وأسبانيا– يبرز الفن عند بدوى كقيمة كبرى. ففى باريس تسطع مظاهر تذوقه الفنى الرفيع، وإحساساته المرهفة، ومشاعره المتوقده لروعه الإتقان وجلال الإبداع فى أعمال المَثَّال رودان. نرى بدوى أيضا وقد كاد يجثو على ركبتيه فى خشوع أمام تمثال فينوس ميلو بمتحف اللوفر. وفى سويسرا، ها هو ذا بدوى يبصر مناظرها الطبيعية بروح شاعرية، وتأمل شارد، وانبهار بجلال المنظر وعظمته. وفى رسائله لسلوى نقرأ له أوصافاً بديعة لكل منظر طبيعى أمعن فيه نظرة، وتأمله بقلبه، وتبصره بعقله.[٢١] وفى أسبانيا عبر بدوى لسلوى عن إعجابه بالموسيقى الأندلسية التى «هزت مشاعره وطرب لها وجدانه لما وجده فيها من نعومة تمس الأغوار الباطنية برقة وحنان».[٢٢] فلقد حدث فى الأندلس تزاوج مبدع بين الروح العربية والروح الأسبانية، الأمر الذى اكتشفه بدوى فى رحلته وقدمه كنموذج لروعة وإبداعية تلاقى الأفكار والخبرات وتفاعلها.

وهكذا أوضحت الرحلة عن ارتباط الفلسفة بالفن فى التركيبة الفكرية لعبد الرحمن بدوى، شأنه فى ذلك شأن مشاهير الفلاسفة. ومع أن أحاديث بدوى فى رسالته عن جمال الأشياء التى عاينها قد تناولت – أساساً– الشكل والأبعاد والتأثير إلا أنها – فيما يبدو – لا تكون فى مجموعها منهجاً نقدياً للأعمال الفنية أو تشكل نظرية فى علم الجمال كما هو الحال – مثلاً – عند كانت أونيتشه أو سنتياناوغيرهم. أعتقد أن الحديث عن الفيلسوف (رلكه) والفنان (رودان) والربط بينهما، وأن للزيارة المشتركة لمشاهد كل من الفيلسوف نيتشه والموسيقار ڤجنر على الرغم مما كان بين الاثنين من مودةٍ بدايةً ثم جفاءٍ لاحقاً، أراد بدوى بهما أن يؤكد الصلة الوثيقة والالتقاء الفكرى والروحى بين الفلاسفة والفنانين عامة، ولديه خاصة. أليس الفنان –

obeikandl.com

كما يتراء ى لى - غالباً ما يعبر عن فلسفته من خلال عمله الفنى، وأن الفيلسوف كثيراً ما يصوغ فلسفته من وحى فنه الفكرى، متمثلاً فى منهج ورؤية خاصة بذاته وبالعالم كما يراه أو يريده. وأتفق أيضاً مع بدوى فى أن الرسالة التنويرية للفيلسوف لا تكتمل إلا بالفن؛ فالفن الذى اعتبره نيتشه ضرورة مكملة للعلم(٢٣) وجد فيه رلكه الخلاص من جزع صخب الحياة خاصة فى المدن الكبرى(٢٤).

وكما أبرزت لنا رسائل الرحلة قيمة الفن فى فكر رحالة الحور والنور أوضحت أيضاً عشقه للحب، وأفادتنا - بوعى أو بغير وعى - بشىء عن مكانة المرأة فى دنيا صاحب الرحلة. فلقد تضمنت رحلته زيارة لمقبرة غادة الكاميليا، وحجاً (باسمه واسم ليلى)(٢٥) لأطلال مهد الغرام المتوقد بين ألفونس دى لا مارتين وجوليا شارل: «فما أروع زيارة الأطلال فى نفوس العاشقين»(٢٦). فالحب عند بدوى ينبع من الحزن لأن الحب - فى رأيه - «أسى على ما فات من شطر للنصفين المتكاملين، ورجاء حارٌ فى العود إلى التكامل من جديد».(٢٧) ويرتبط الحب عنده أيضاً بالجسد. فلجسد المرأة - فى نظر وفكر عبد الرحمن بدوى - سر وسحر تغنّى فى رسائله بتأثيرهما عليه وبما بعثا فى روحه من إحساس فياض وعواطف ملتهبة جعلته يتمنى عند مثوله أمام تمثال «الصنم الخالد» للفنان (رودان) لو كانت سلوى إلى جواره ليتذوقا معاً جمال هذا العمل الفنى الرمزى الرائع الذى «يصور امرأة واقفة ورجلاً راكعاً جاثياً على ركبتيه يقبل بعنف مركز الإشعاع الجسدى فى المرأة (أى سرتها)».(٢٨) هل - ياترى - تفيدنا رسائل رحلة الحور والنور أن بدوي يرى جمال المرأة فى إغرائها وليس فى عقلها أو مكانتها؟!.

ولنقف بُرْهه أمام مطلع واحدة من رسائل بدوى إلى سلوى تساءل فيها عن حقيقة وخصوصية هوية المرأة وصفاتها: ماذا! أأطاف بك مس من الحماقة المألوفة فى بنات جنسك؟!، أم هو ما عهدته فيك من افتتان فى الدلال؟. أحقاً- إذن - أن الحماقة صفة مألوفة عند المرأة، وأن الافتتان وسيلتها الماكرة لإخضاع الرجل، أم هكذا أراد بدوى أن يصرح برأيه الشخصى عن بعض صفات المرأة بما فيها التشكك فى قدراتها العقلية بما تتساوى فيه مع الرجل. ويبدو أن بدوى قد اتخذ موقفاً من المرأة

وشكل نظرته إليها متأثراً فى ذلك بآراء العديد من الفلاسفة والأدباء الغربيين أمثال شوبنهور ونيتشه وجان جاك روسو ومونتى وغيرهم كثيرون. ونقرأ لشوبنهور - مثلاً - رأيه الذى يقول فيه «أنه قد يكون للنساء موهبة عظيمة ولكنها لن تبلغ العبقرية لأنهن ذاتيات وكل شيء فيهن شخصى وينظرن إلى الأمور نظرة ذاتية كوسيلة لمصلحتهن الشخصية».(٢٩) فالتعامل مع المرأة والثقة بها- إذن - لعبة خطرة كما فطن نيتشه؛ وأخذاً بهذا الرأى ربما أراد بدوى تجنب هذه اللعبة كلية.

ويحق لنا أن نتساءل هنا: هل كشفت رسائل الرحلة كل أمور الحب والعاطفة عند، بدوى أو أفصحت عن جزء يسير منه؟ هل حقا لا يرى بدوى فى المرأة إلا جسدها كما نستشف من رسالته التى حررها إلى سلوى عند زيارته لمهد غرام لامارتين وجوليا؟.

كتب بدوى قائلاً: «ودعت العشرين وشارفت الثلاثين، أى ودعت الغرام الطاهر الموحد، واندفعت مرغماً منى فى أتاويه الجسد، أصب فى كأس الخيبة المبكرة دماء الحواس اللاهثة».(٣٠) ومع مايبدو من ارتباط الجسد بالجنس فى هذه الفقرة، إلا أن الجنس - فى رأيى - لا يحول دون الحب، كما أنه ليس مساوياً بالضرورة للأغلال: فالحب مستويات وهو أساس الروحانيات التى قد تصل إلى حد التصوف.

وفى ختام حديثنا المختصر عن رحلة الحور والنور وما توصلنا إليه من فهم - أولى على الأقل- لمعالم فكر عبد الرحمن بدوى وتوجهات المعرفة لديه، يواجهنا سؤال مهم وملح عن طبيعة شخصية هذا الرجل وأغوار نفسية هذا الرحالة. عن نفسه صرح بدوى فى بداية رحلته أنه شخص احترقت أنفاسه بلهيب القلق، وغمر حياته الحزن وألم به الهم إلى حد أن تاقت نفسه إلى عبير الموت، الذى رأى فيه شوبنهور أعظم بركه ونعمة للناس. هذه الشخصية القلقة ذات النفس المتوترة والروح الوثابة رأت العالم من حولها حزينا لانتصار المنفعة على العاطفة وطغيان المادة على الروح.(٣١)، حزن بدوى على العالم كما حزن على نفسه أيضا، فأضحى مفكراً حزينا خشى الناس وآثر الابتعاد عنهم. ومع ذلك تراه يدعو سلوى لتحطيم حاجز الخوف من الناس بتحديهم والتمرد عليهم.(٣٢) وربما يكون موقف الخشية مع التحدى قد

أضفى على شخصيته إحساساً بالتميز والتفرد، مثلما ظن نيتشه فى نفسه أيضاً. ومع افتراض وجود صفة الاستعلاء الفكرى فى شخصية عبد الرحمن بدوى إلا أنها لا تمحو- مطلقاً - رفاهة الحس ورقة المشاعر بداخل نفس هذا الرجل الذى عشق الحب، وتغنى بالجمال فى جسد المرأة والطبيعة[٣٣]، ومجد الفن، ولفظ وحشية الإنسان وقسوته فى «مهزلة مصارعة الثيران» بأسبانيا.[٣٤]

ولكى تكتمل معالم صورة شخص عبد الرحمن بدوى، فلنتقصَّ معاً ماذا رأت سلوى فى خصاله، ففى واحدة من رسائلها كتبت سلوى تخاطبه قائلةً: «أنت الثائر على السكون، النازع إلى الحركة والانفعال، الهائم بالتجديد والزوال»[٣٥]. وفى رسالة أخرى نقرأ معرفتها به وفهمها لدخائل نفسه وطبيعة مزاجه، فتقول له: «أنت الولوع بالمتناقضات، المحب للمفارقات، لأن فيها ذلك الحى الذى ترى فيه أنت سر الوجود الحق، أيها الوجودى المليء بالمفارقات»[٣٦]

وهكذا أزاحت رسائل ومسار (رحلة الحور والنور) القناع - ولو قليلاً- عن وجه صاحب الرحلة: الفيلسوف عبد الرحمن بدوى.

الهوامش

١- انظر كتابنا بعنوان «أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافى». سلسلة (عالم المعرفة)، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، يونيو ١٩٨٩

٢- سبق أن قدم الباحث عبد الرحمن أبو عوف مقالاً بعنوان «غربة عبد الرحمن بدوى» قراءة فى الحور والنور». مجلة القاهرة - عدد يناير ١٩٩٦. ص ٣٦ - ٤٢.

نظرا لاهتماماتى وكتاباتى فى مجال الرحلة والرحالة، اختار لى عبد الرحمن بدوى - فى مقابلة معه بباريس - كتاب (الحور والنور) لقراءته. حدث هذا منذ عشر سنوات تقريباً.

٣- تشير السيرة الذاتية لعبد الرحمن بدوى إلى تنقُّله وعمله فى عدة بلاد من بينها لبنان - ليبيا - إيران - الكويت. هذا إلى جانب أسفاره ورحلاته ودراسته فى ألمانيا خاصة - وبلاد أوروبية أخرى. للمزيد عن هذه السيرة انظر مقالا بعنوان «ببليوجرافيا عبد الرحمن بدوى» مجلة القاهرة، عدد يناير ١٩٩٦، ص ٦٢ - ٦٤.

٤- أنظر كتاب قصة الفلسفة ول ديورانت، مكتبة المعارف، بيروت بدون تاريخ، ص ٤٤٢.

٥- كتاب الحور والنور، تأليف عبد الرحمن بدوى . دار القلم (بيروت) بالاشتراك مع وكالة المطبوعات (الكويت)، طبعة ١٩٧٩، ص ٣.

٦- كتاب الحور والنور، ص ٤

٧- كتاب الحور والنور، ص ١٣

٨- كتاب الحور والنور، ص ٢١٨

٩- استخدام بدوى المجازى لمفهوم الحج هنا ربما قصد به رفع منزلة شيوخه الروحيين إلى حد إضفاء صفة القداسة عليهم. ففى خطابه لسلوى عن منازل رلكه فى باريس صرح بدوى أنه قد فهم معنى الحج فى الدين للمشاعر الفياضة والخشوع الذى واكبه عند أداء الزيارة (ص ١٠٧).

١٠- تشير الذاتية لعبد الرحمن بدوى إلى أنه عمل مستشاراً ثقافياً ومديراً للبعثة التعليمية فى برن عاصمة سويسرا فى المدة من مارس ١٩٥٦ حتى نوفمبر ١٩٥٨. وفى فبراير سنة ١٩٦٧ انتدب أستاذاً زائر لإلقاء محاضرات فى قسم الفلسفة وفى معهد الدراسات الإسلامية فى كلية الآداب (السوربون) بجامعة باريس وظل فى عمله هذا حتى مايو سنة ١٩٦٧. أنظر مجلة القاهرة، عدد يناير ١٩٩٦، ص ٦٣.

١١- كتاب الحور والنور، ص هـ.

١٢- فى خطابه الأول لسلوى من باريس، موضحا لها الدافع لرحلته، كتب بدوى يقول.

«فما أتيت باريس إلا لأخلو إلى نفسى طليقة من كل طائف أليم وذكرى أسيفة. وما أريد إلا أن أشاهد بعيونى، وأمتع البصر كثيراً والفكر قليلاً. أريد الإحساس الحاد الخالص من كل تأويل فكرى، الإحساس المجرد الخالى من كل إدراك أو تعقل. فقد سئمت التعقل والتجريد، فلأدعهما إلى حين.

وعندى أن هذه هى الميزة الكبرى للرحلات والأسفار النائية، بل والدانية (الحور والنور، ص ٧).

١٣- يشارك بدوى فى نظرته هذه إلى باريس إحساس رلكه بمعنى الموت، يطوف بأرجاء المدينة. فالمدن الكبرى أمر مناف للطبيعة فى نظر رلكه أيضاً. ويتفق بدوى أيضاً مع رلكه فى وصف باريس التى رآها «عابثة نرجسية النزعة، كأنها فتاة لعوب معجبه بنفسها، وجهها دائماً فى مرآتها، فيها الغرور والخيلاء ما يزوِّر لها كل ما فيها على أنه النموذج الأعلى والأمثل فى كل شىء مهما يكن عظيماً أو حقيراً.

بل لا معنى للحقارة والعظمة بالنسبة إليها: فهى تزعم أن كل ما فيها عظيم، وما على المعايير إلا أن تؤخذ منها» (الحور والنور، ص ١١٣).

١٤- كتاب الحور والنور، ص ٢٢٦

١٥- كتاب الحور والنور، ص ٢٥٣

١٦- كتاب الحور والنور، ص ٢٥٤

١٧- استهل بدوى خطابه إلى سلوى عن مواكب أجداده والفن فى طليطلة منشداً:

«دخلت طليطة بين مواكب الألوان ومواكب الأشجان.

سهوب من الرمل القانى تتراءى كأنها أمواج من الجمر المتقد.

تتخللها أفواف من الصفرة الكابية فى مجراها يسبح الحصى الرقيق.

اتقدى ياسهوب، فقلبى عامر بفرحة الماضى العريق!

واصفرى يارمال، فذكرى آبائى الأمجاد تشيع فى حاضرى الحزين!

وجلجلى يانهر التاجه، فكم ارتوى منك أجدادى الظماء إلى المجد العالى والسلطان الأثيل!

واشمخى أيتها الأسوار المنيعة، فكم انكفأت دونك أعناق الأعداء!

واتلى سور الماضى أيتها الأحجار والأزقة والأبواب» (الحور والنور، ص ٢٨٥)

١٨- انظر مقال أنور عبد الملك «كيف تكون الفلسفة»، مجلة القاهرة، عدد يناير ١٩٩٦، ص ٢١

١٩- يقول بدوى عن رينان - أو الساحر الأكبر كما يسميه - إنه بدله بشخص آخر حين أنار له الطريق: «فإذا به يهتف بى: من هنا الطريق! آه كم كان لصيحته الهائلة هذه من أثر حاسم فى توجيه كل كيانى الروحى لقد أبدلنى مخلوقا آخر لا يهتدى بغير نور العقل» كتاب الحور والنور، ص٤

٢٠- هنا نجد ربطاً بن تمجيد العقل وتمجيد الطبيعة معاً فى طريق التنوير الفكرى والنهضة الحضارية.

٢١- يذكر بدوى «إن الألحان الأندلسية بمختلف أنواعها هى الأصول الحية القوية التى لابد من الاستناد إليها فى كل تجديد موسيقى مرموق، وهى من نبات روحنا العربية الأصلية التى ما عرفت كيف تزدهر حق الازدهار إلا فى هذه التربة الخصبة، تربة الأندلس، لأنها ذات رحم ماسة بها بطبعها» (الحور والنور، ص ٢٦٠)

٢٢- انظر قصة الفلسفة ول ديورانت، ص ٥١٤

٢٣- كتاب الحور والنور ص ١١٥

٢٤- كتاب الحور والنور ص ١٦٦

٢٥- كتاب الحور والنور ص ١٧٨

٢٦- كتاب الحور والنور ص ١٧٨

٢٦- كتاب الحور والنور ص ٧٢

٢٨- قصة الفلسفة ول ديورانت، ص ٤٢٩

٢٩- كتاب الحور والنور، ص ١٦٥

٣٠- كتاب الحور والنور، ص ١٨٠

٣١- أمام تمثال فينوس ميلو بمتحف اللوفر بباريس كتب بدوى: «وقفت خاشعاً، ولولا خوف الناس - ولا يزال عندى هذا الاحتجاز الذى طالما ألفته فى يا سلواى! - لجَثَوْتُ على ركبتى (الحور والنور، ص

(٧٤. وعن دعوته لتحدى الناس وإزالة هذا الخوف الذى لازمه، كتب بدوى إلى سلوى قائلاً: لست أدرى إلى متى نجفل نحن أمام هذه الأوهام التى فرضها علينا الناس ولا نبددها، وندعهم فى حياتهم الميتة هذه يتخبطون. دعينى أقلْ لك إن علينا يقع الإ ثم فى هذا كله - نحن أبناء هذا الجيل -، فإننا من الجبانة بحيث لم نتحدَّهم، وندعهم يقولون ما يشاء ون (الحور والنور، ص ١٦).

٣٢- فى رسالة بدوى إلى سلوى من سويسرا سألها هل تعرفين الجمال الوحشى؟ إنه فى الطبيعة كما فى الإنسان، قصد هنا المرأة. ومن أسبانيا، وإعجابه بجمال نسائها كتب بدوى إلى سلوى قائلاً

«وأشهد لقد طوفت ما طوفت فى مغانى الجمال فما عثرت على مثل هذا القدر المجتمع من الجمال والإغراء». وفى وصفه لإحدى راقصات مسرح الملكة فيكتوريا نقرأ لبدوى هذا الوصف:

«ورفع الستار فتبدت غادة تهدف إلى الثلاثين: سمراء وفى سمرتها جاذبية تهز المشاعر هزاً عنيفاً، لعوب وفى تلاعبها ما يحطم وقار الحليم، وصبر الكظيم، مجدولة البدن فى نظرة تتواثب من خلاياها أشعه الفجر، سوداء العيون الواسعة البعيدة الغور كأنها المحيط، وقد أحاطت برأسها المستدير غدائر قصيرة تلمع كما تلمع الفحمة البراقة فى قوس ڤولتا، وكأنها تستمد من شعورها تلك الكهرباء السحرية الخارقة التى تسرى فى سائر خلاياها». (الحور النور، ص ٢٥٨ - ٢٥٩).

٣٣- كتاب الحور والنور، ص ٢٨٠.

٣٤- كتاب الحور والنور، ص ١٢

٣٥- كتاب الحور والنور، ص ٢٤٠

●●●